بشارا

قصة بقلم أنور قصيباتي

انتشرت صورة « آية علي » في ذهني حالما لامست بطاقة البريد المهورة بخاتم مدينة كرمنشاه . فمنذ عهد تطاول في نفسي لم اسمع شيئا عن آية علي . جمعتنا الزمالة لعام دراسي كامل . كان قد وفد الى جامعة مدينتنا في منحة دراسية للاطلاع على تاريخ الشرق القديم لحساب متحف طهران وكان من قبل قد قضى عامين في جامعة شيكاغو يدرس الاثار .

كان شابا في مقتبل العمر ، واضح الملامح ، نحيلا ، صافي البشرة والنفس كخط من خطوط توس قزح . تعرفت عليه في رحلة قامت بها الكلية الى تدمر . وقد لفت نظري صمته الدائم ، وشروده المستمر الذي كان ينبع من عينيه الحالمتين ... لدرجة كنت اخال فيهما بأن بؤبؤيه يشتاقان الانخلاع عن محجريه والانتشار على عرض الافاق . كان ظاهريا ضمن شلتنا ، يركب في مقاعدنا المتقاربة ، ويصغي لاحاديثنا ، ويبسم لنكاتنا ، ويشاركنا الفناء اثناء الطريق ، ويمشي معنا ابان التجول . لكن .. لشد ما كان بعيدا عنا . قال اول تقارب بيننا عندما اخذت اتحدث امام لوحة نافرة ، نحتت من الرخام ، تمثل عائلة تدمرية بكامل اعضائها وهي تتعاطى الشراب ، وقلت : ان هؤلاء الاحباء اكثر من الوف الاشخاص يعيشون بيننا وهم يقفون على عتبة الموت .

ولم اكن على وجه التحديد جادا في قولي ، انما كان حديثي كله مجرد اثارة من تلك الاثارات الطلقة التي تحدثها عادة طبيعة الرحلات الجماعية . الا ان آية علي ، استوقفني عند هذه الجملة ، واخذ يستفهم عن مدى ايماني بها ، وعن الخبرات الخاصة التي اقمتها عليها ... وظللنا نتحدث ونحن نتمشى بين الاطلال ضمن الفريق .. الى ان انحصر الحديث فيما بيننا . وقبل ان ننضم ثانية الى الجماعة ، وقف فجأة ورنا ببصره نحو الافاق القابعة فوق رمال الصحراء وقال ببطء :

ـ اترى هذا المرج البعيد ؟

ـ اجل اني اراه ، انه مجرد زغب اخضر على وجه الصحراء .

ـ الا تعتقد بان مدينة من رخام تكمن وراء هذا المرج ؟.

دهشت لهذا السؤال المفاجيء واجبت :

ـ ربما هو السراب ، ما ترى ؟

ـ اعني ربما كانت هنالك مدينة من رخام مطمورة تحت الرمال .

ـ لست ادري !.

هتف بتصميم غريب وقد ازداد شرودا :

ـ اجل ان هنالك لمدينة من رخام تقوم وراء هذا المرج .

* * *

كان من الطبيعي فيما بعد ، ان نستغل فرص العطلات للانسياح في المنطقة بأسرها ، حتى غدت مدن الماضي بالنسبة الينا ، وعلى الاخص بالنسبة اليه هو ، هي المدن المعاصرة لنا ، واستحالت مدن الحاضر الى اطلال تحرسها الاشباح وهياكل الموتى . وكان يبدو في كل منطقة نرتادها ، كشخص يفتش عن شيء قد اضاعه . كان يفتش بين اطلال بصري ، وفي كهوف البتراء ، وعلى رخام بعلبك ، ويلامس اللوحات البيزنطية الملونة ، ويحدق طويلا في الكتابة الكوفية المشجرة ، وكان يضيع تماما امام خرائب استراحات الصيد التي اقامها الخلفاء في البوادي . وكان يبدو باستمرار كئيبا شريدا ، ما خلا مرتين ، الاولى في متحف دمشق ، عندما هلل بشرا امام عقيقة ملتهبة تحوي في قلبها صورة فاتنة للاله ابولو ، والثانية امام مدخله ، عندما انفجر ضاحكا لمنظر تمثال الالهة اثينا المنحوت من الحجر الاسود ، وقد اخذ يعلق ساخرا على الرأس الذي حل بالهة اليونان يوم تركوا منازلهم المعلقة فوق السحب ليقيموا بين تلال حوران البركانية .

* * *

كان فراقنا عاديا كما كان لقاؤنا . وقد ذكر لي في رسائله الاولى بانه استلم وظيفة تافهة في متحف طهران ، ثم انقطعت اخباره عني . وكنت دوما اعرف بان طوفانا من الماضي السحيق يأتي عليه ويغرقه ، فيحجب عنه رؤية نفسه والاخرين . كانت الدعوة الحارة التي حملتها لي بطاقته لمواقاته في طهران ضمن مدة محدودة ، مثار عشرات الاسئلة التي دارت في ذهني ، لقد اوضح لي بانه يرغب بشوق حاد ان احضر الاحتفال الذي سيقام بمناسبة اكتشاف مدينة « بشارا » . وكنت قبل شهور قد قرأت خبرا في احدى الجرائد المحلية عن اكتشاف مدينة فارسية تحمل الطابع اليوناني في صحراء كرمان . ولم يثر بي ذلك الخبر اي اهتمام يدفعني للاحقته في المجلات الاثرية التي كنت قد انقطعت عن مطالعتها منذ رحيل آية علي . اما عندما اتاني الخبر عن طريق آية علي نفسه ، فقد شبت في كياني رغبة عنيفة لرؤية بشارا ، والاهم من ذلك رؤية آية علي وهو يتأمل المدينة المكتشفة بنظرات تحيل الزمان في تصوره الى كرتين تكمنان ضمن محجريه ، كنت اريد ان ارى المكتشفات الجديدة من خلال ملامحه المتماوجة . وصممت على ان ابذل منتهى جهدي في سبيل الحصول على اجازة تتيح لي فرصة لقاء آية علي.

* * *

بعد يومين من حصولي على الاجازة ، كنت في طهران ، وقد انتظرت يوما وليلة قبل ان القى آية علي في مكتبه بمتحف طهران .

كان اجتماعنا عاديا صلبا ، كلقائنا الاول ، وكفراقنا الماضي . قال واصداء خافتة كرنين الماضي تتخلف من صوته :

ـ ما كان يجب ان اتأخر في كرمنشاه .

فأجبته ضاحكا :

ـ لكنك تأخرت .

ـ اجل لقد تأخرت .. انها طبيعة العمل .

ثم غير جلسته ، وهتف ببشر :

ـ اني فرح بوجودك .

قلت مازحا :

ـ لمـاذا ؟!

ـ آه لماذا .... الا تدري ؟

ثم استطرد بحماس :

ـ لكي نرى بشارا معا .. اتذكر كم رأينا معا ؟

ـ اجل اذكر . الا انك لم تعثر على ما كنت تبحث .

فأكتأب فجأة وقال :

ـ اكنت ابحث عن شيء ؟

ـ هكذا كان يخيل الي .

قال بتردد وبصوت مضطرب :

ـ ربما !! .. لست ادري ؟!

ـ والان هات حدثني عن بشارا .

قال وقد برقت عيناه :

ـ هل تصدق بانني انا الذي اكتشفت المدينة ، ومع ذلك فاني لم ارها بعد ؟

ـ هل تمزح ؟

ـ كلا .

ـ كيف اكتشفتها اذن ؟!

لقد أتت برقية من حاكم كرمان الى المتحف يقول فيها بأن الشركة التي تنقب عن البترول في صحراء كرمان قد وجدت اثناء حفرياتها هناك بعض أجزاء من قطع رخامية منحوتة . فأرسلني المتحف لكي أستطلع الامر . فوجدت بأن الشظايا الرخامية ، انما طمرت في ذلك المكان عن طريق الصدفة ، او بفعل الرياح العنيفة ، وان المكان في حد ذاته لا يحوي شيئا ولم يقم فيه قبل ذلك أي عمران . وأخذت أستغل فرصة وجودي هناك لاشبع ميلي العنيف الى استطلاع الصحارى . وذات مرة أوغلت بعيدا في سيارة الجيب ، مدفوعا برغبة مجهولة ، حتى التقيت بمرج واسع بدا كالثوب المتآكل ، لتغطية الرمال بعض أقسامه ، وانحسارها عن أقسامه الاخرى . وكان المرج واسعا جدا ، اندفعت في وسطه ، كان يختفي مرة ويظهر مرة . وكان علي ان اعود قبل آن أصر على اكتشاف نهايته ، مؤجلا ذلك الى فرصة اخرى . وتيقنت بأن قطع الرخام الصغيرة قد أتت من هذا المكان ، أو حملت منه ، لان مدينة بيضاء قد انتصبت في ذهني على حافة المرج . وقلت في نفسي : « لا بد ان تكون المدينة هناك » ولما قدمت تقريري ادعيت بأن قطع الرخام وجدت على مسافة قريبة من المرج ، وانه لا بد من وجود آثار مطمورة وراءه أو في وسطه . ونصحت بالقيام بحفريات هناك .

قلت مقاطعا :

ـ وهكذا أرسلت بعثة تنقيب الى هناك ، فعثرت على المدينة دون ان تكون أنت معها ؟!

ـ على الضبط .. هذا ما حدث .

ـ ولكن لماذا لم تكن ضمن أعضاء البعثة ؟

أجاب ساخرا :

ـ انك تعلم عقلية الرؤساء . فهم دوما يضعونك في المكان الذي لا ترغب فيه .

ـ ومتى سنتوجه الى بشارا ؟

ـ بعد غد في الصباح . اني لن أريك الصور التي التقطت لبقاياها . يجب أن تراها فجأة بكليتها . ان بعض مبانيها قد بقي سالما تقريبا .

ـ أوه .. انك شديد الحماس .

ـ بل اني غريق نشوة لا حد لطاقتها . ان وهجا منيرا صافي الالوان يسطع داخل جبهتي ، انها مدينة المرج الاخضر . ستستمع الى قصتها ابان الاحتفال .

ـ قصة اكتشافها ؟

ـ كلا بالطبع انما قصة بنائها .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لقد وجدت كتابات كثيرة على الجدران والاعمدة والتماثيل ، وعثر على رقع سليمة مليئة بالكتابات الفارسية واليونانية ، وكلها تتحدث باسهاب عن قصة قيام بشارا . وقد وضع أحد كبار موظفي المتحف موجزا لهذه القصة سوف يتلى يوم الاحتفال .

ـ هل أطلعت عليه ؟

ـ كلا بالطبع . انني دوما في مهام خارج طهران . لكنني دهش مما سمعت عنها ، ورأيت من صورها . انها مدينة اغريقية مئة بالمئة ، ومع ذلك فالروح الفارسية تشع منها . ألا تدهش لذلك ؟

أجبت :

ـ ليس كثيرا لانها قد بنيت حتما في العصر الهليني .

ـ ان هذا لا يمنع من كون وجودها أمرا خارقا للعادة .

ـ على كل سنعرف ذلك عندما نراها .

هتف بحماس :

ـ وبعد رؤيتها سنبقى اياما واياما نتحدث عنها مشافهة وبالرسائل . أليس كذلك ؟

ـ اجل . كما كانت عادتنا دوما .

فتبسم آية علي ، وذهب في شرود عميق .

***

استغرق الطريق الى كرمان يوما وليلة . وبعد استراحة يوم في المدينة بدأت سياراتنا تتوغل في الصحراء . كان فريقنا يضم مندوبين عن معظم المتاحف العالمية . وبعد مسير سبع ساعات متواصلة، بدأت تلوح لانظارنا انعكاسات الشمس وهي تتصاعد من أماكن متفرقة على سطح وسفح تلة غضارية . هتف آية علي :

ـ لقد كانت هذه التلة مجرد كثيب رملي يوم اهتديت الى هذا المكان .

قلت :

ـ يبدو ان المدينة بنيت على تلة تشرف على المرج .

فشرد نحو الوهج المنبعث من التلة كالنوافير ، وقال بأسى :

ـ كيف لم أذكر بأن المدينة تقوم على تلة ؟.. كيف لم أذكر ذلك ؟.. كيف ؟!

قلت له :

ـ على كل فان المدينة موجودة وراء المرج . أو هكذا تبدو اذا وقفت في نهايته ، تجاه التلة .

هز رأسه موافقا على كلامي ، بينما ظلت عيناه مشدودتين الى وهج الرخام البعيد .

بدت المدينة لي ، أشبه ببلدة أنيقة تضم مجموعة من المباني المتناثرة هنا وهناك ، كانت تفصلها عن بعضها فيما مضى تربة معشوشبة وحدائق خصبة . وعلى الضبط لم أستطع ان ادرك الغاية من تشييدها، فما كانت أبدا صالحة لاقامة الجمهور . ليس فيها أسواق ، ولا ساحات ولا شوارع أو بيوت تصطف عليها . كان البناء الرئيسي في الوسط وقد أقيم على عمد من الرخام تهدم معظمها ، وحوله حيث يظن انه كانت تقوم حديقة واسعة ، وجدت تماثيل كثيرة لفتيان مراهقين صيغوا على مثال الالهة الاغريقية ، الا ان الوجوه لم تكن تحمل الطابع اليوناني المعروف ، انما كانت تلوح عليها رفة شرقية واضحة . وعلى جوانب البناء الرئيسي ، الذي كان على الاكثر مقر الاقامة لسيد المدينة ، شيدت عدة ابنية منها أبنية دائرية ، ومنها أبنية ذات أبهاء واسعة ربما فرشت بالمرمر ، ولم يكن هنالك اثر لاي معبد ديني . ومجموعة الابنية تطل على مرج واسع أزيحت الرمال عن قسم كبير منه، وظهر انه كان مطمورا تحت مرج متقطع صنعته بعض رشوحات المياه ، وقد اعيد للمرج الجديد بعض نضارته السالفة عندما اجريت عليه العيون التي تفجرت بعد ازاحة أطنان الرمال من على سطح وسفوح التلة . وفي وسط المرج بدت آثار لبركة سباحة واسعة على حوافيها انتصبت قواعد لتماثيل لم يبق منها سوى بعض الاجزاء المحطمة .

قلت لآية علي :

ـ لقد شيدت هذه المدينة بدون غرض .

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١

أجابني وبؤبؤاه يتكسران على رخامهما :

ـ ليس للجمال غرض معين ، ولا غاية للفن ابدا . هذا الرخام ، وهذا الامتداد المخملي الاخضر ، وهذه التماثيل المشرقة ، انها كلها مجرد تجسيد لعاطفة ما ، مرت ذات يوم في لحظة اشراق على هذه الارض .

لم أجد في ذهني شيئا أستطيع به أن أرد على جموح اية علي ، فبقيت سائرا بجانبه الى حيث أعد الموضع الذي سنجلس عليه لنستمع الى قصة خلق بشارا .

اخذ عشرات من المدعوين يصفون بأهتمام الى مدير البعثة التي أشرفت على الحفريات . اما انا فقد اخذت نظراتي تتزحلق على جروف التلة ، وتتدحرج على المرج النضير محاولة الامتداد الى ما وراء الصحراء . لقد اخذت افكر بقرابة شخصية اية علي ، وسر انجذابه الى الماضي السحيق ، واهتمامه الشديد بالاطلال . وما حيرني منه سوى تلك الصورة الملتصقة بمخيلته . صورة المرج الاخضر والمدينة الرخامية التي ترتفع خلفه ، وتذكرت يوم لقائنا الاول منذ سنوات في تدمر ، كيف سطعت في مخيلته صورة المدينة البيضاء حالما لمح مرجا من الحشيش يقوم على حافة الصحراء . وتنبهت من شرودي على صوت تصفيق وقور . ثم رأيت المحاضر يجلس ليتقدم غيره ويقول :

ـ « لعل هذه المدينة ايها السادة المحترمون ، هي اول مدينة في تاريخ المكتشفات الاثرية ، تعطي قصة بنائها لمكتشفيها بدون عناء . وانها لقصة كاملة مدهشة سوف يقوم متحفنا عن قريب بنشرها في كتاب خاص . اما الان فاسمحوا لي ايها السادة المحترمين ان أتكلم بخلاصة يسيرة لاحداث هذه القصة ، علها تنسيكم بعض ما تجشمتموه من عناء في تقبلكم دعوتنا » . ثم نظر في الاوراق التي كانت بين يديه واخذ يقرأ : « كان حاكم جنوبي فارس اميرا واسع النفوذ والثقافة ، وكان يتبع اسما الملك السلوقي ، الا انه كان مستقلا في شؤونه الداخلية ، وقد أقام في عاصمته بلاطا مترفا ضاهى بلاط السلوقيين . واستقدم الصناع والفنانين والفلاسفة من المدن الهلينية في سورية ومن اليونان نفسها . وكان له ابن وحيد يدعى « زارا » عهد به أبوه الى مؤدبين من فارس ويونان ، فعلموه حكمة الهند وتعاليم الفرس ، وأثروا عقله بأفكار الفلاسفة الاوائل ، ووسعوا مداركه بالعقول الناضجة للثلاثة الكبار ، وأخصبوا خياله بأساطير الالهة وأصواتها على قمة جبلهم المقدس . وكان زارا بطبيعته ، فتى رقيق الحاشية مرهف الحس ، بعيد الخيال ، كان وجهه الفارسي بالغ النبل والصفاء ، وعيناه كبيرتان حالمتان . كان يهوى التحديق بالنجوم ، وينتظر ساهرا مطالع الفجر ، وكان كثيرا ما يخشع امام عري الرخام . كانت عواطفه المتأججة الضائعة ، بمستوى ثقافته الناضجة .

« وذات يوم كان الامير زارا يجلس بجانب والده في قاعة العرش يشارك في استقبال الحكام الوطنيين الذين وفدوا البلاط لتأييده في محاولة استقلاله عن السلوقيين .. عندما أعلن عن دخول وفد مدينة « قندهار » فلفت نظره وجود فتى في مثل سنه مع الوفد ، قدم الى حاكم كرمان على انه الامير « بشار » ابن حاكم قندهار . وأخذ زارا يتأمل ، بيقظة حسه المراهق ، وجه بشار . لقد كان وجها طفوليا غامضا ، تكتنفه أسرار الحلم ، وينبعث منه ضباب الرؤى . وجها نضرا جميلا ، ملامحه صريحة واضحة كالكبرياء العفوية . وكان وهو ملتف بعباءته الفارسية يبدو كزوبعة من نور اخضر . ولاول مرة يشعر زارا بالغثيان لمنظر قاعة العرش . اخذ ينقل انظاره من الستائر ذات الزخارف الجامدة المنحدرة من عهد الامبراطورية الاولى ، الى الارائك الهندية الموحشة .. الى الشبابيك السورية المشوشة .. الى التماثيل اليونانية المتنافرة مع بلاط القاعة المقبضة للنفس . وتصور أسواق كرمان المكتظة بالباعة والاقذار ، وساحاتها المليئة بنوق القوافل ، ومرت

آخر منشورات «دار الاداب»

* **الحضارة العربية الجديدة وحتمية الثورة** ق.ل
تأليف انور قصيباتي ٢٠٠

* **طريق الانسان الجديد بين الحرية والاشتراكية**
تأليف احمد حيدر ٢٠٠

* **مع الامام علي من خلال نهج البلاغة**
تأليف خليل الهنداوي ٢٥٠

* **اصابعنا التي تحترق (رواية)**
بقلم الدكتور سهيل ادريس ٤٠٠

* **مشكلة الحب**
بقلم الدكتور زكريا ابراهيم ٥٠٠

* **قضايا الشعر المعاصر**
بقلم نازك الملائكة ٤٥٠

* **ازمة الجنس في الرواية العربية**
بقلم غالي شكري ٤٥٠

* **الاشتراكية والادب**
بقلم الدكتور لويس عوض ٣٥٠

* **الشعوبية والقومية العربية**
بقلم عبد الهادي الفكيكي ١٥٠

في مخيلته صورة مبانيها العتيقة التي ليست بالفارسية ولا بالاشورية ولا باليونانية .. حتى انها لم تكن ولو خليطا من كل ذلك . وقال في نفسه « ليس لهذه الاشكال أي معنى خاص بها .. ليس لها أي طابع معين » كانت كلها في بصره وفي بصيرته تبدو بالية هرمة متآكلة على وشك الانهيار والانقراض . وعاد يتأمل الوجه النقي كقطرة الندى . فأحس هذه المرة بلهيب الحياة يسري في عروقه ويثقب أحشاءه ، وشعر كأنه مقبل على مصير جديد يهز نفسه وكرمان معا .. بل يهز فارس بأسرها . وسمع صوتا في داخله يزلزل أعماقه « ان بشار هو الروح الجديدة لفارس » . وازداد تحديقا ببشار وبعينيه الخضراوين.. الا ان ملامح الوجه بدأت تختفي شيئا فشيئا أمام ناظريه ، وتحل محلها صور واضحة لازهار الجلنار الملتهبة ، ولاسياج الزنبق الابيض . وللاعمدة الرخامية الناصعة ، والمباني البيضاء النظيفة ، والدروب المرصوفة بالمرمر . وبدأ مرج اخضر يمتد في بصيرته ويسحب خياله وراءه الى اللانهاية ، فيرتد عنه الى رؤى جديدة لتماثيل متناثرة فوق المرج وهي تحمل ملامح بشار . ولم ينتبه من شروده ، ويؤوب من متن رؤاه ، الا عندما انسحب وفد قندهار من القاعة ، وغاب عنه وجه بشار ، فأحس وكأن قرص الشمس قد سقط من وسط النهار ، وغاب في قرار سحيق . فقام واقفا وانسحب بهدوء الى جناحه وهو يشعر بأنه استحال الى مجرد دوامات ملتهبة من الاحاسيس . ومن هناك استدعى فورا مربيه « مليتس » الفيلسوف اليوناني . ولما مثل بين يديه ، قص عليه كل شيء ، وتوسع في وصف رؤاه ، وأخبره بأن قوة عجيبة في نفسه نمت فجأة ، وهي قادرة على خلق العالم من جديد . وأدرك الفيلسوف بحدسه المرهف بأن شيئا ما سوف يولد على هذه الارض ، فهتف بتلميذه قائلا : « لم لا تجسد رؤاك واقعا » . وفهم زارا قصد مربيه وقال : أجل . يجب ان أبني مدينة جديدة بعيدة عن كرمان وقراها ودساكرها . مدينة لا يدخلها الغبار المتسخ أبدا ، تحمل كل أناقة بشار ، مدينة لن يدخلها سوانا أنا وبشار وحاشيتنا . ليس هنالك في كرمان أو في قندهار أو في انطاكية نفسها مكان يصلح لكي يمشي عليه بشار . عندما سأنشر مخيلتي على الواقع ، وأجسد رؤاي على الارض ، أكون قد خلقت ما هو بمستوى بشار ... وقسما اني لن أراه ثانية الا في المدينة الجديدة حيث يجب ان يكون .

« وبدأ زارا يرسل الفرسان الى أرجاء البلاد ، والى أراضي المقاطعات التي تدين بالولاء الى كرمان ، طالبا منهم البحث عن مرج اخضر يكون في برية منعزلة ، او في سفح جبل بعيد ، أو في قلب الصحراء . وأخذ يتسقط أخبار القوافل ، ويسأل عن ممراتها ومسالكها ومشاهداتها . وأرسل وراء المهندسين والبنائين والمثالين ، فتقاطروا عليه من أثينا والاسكندرية وانطاكية . واستطاعت مجموعة من الفرسان ، كان رئيسها قد افتن بأميره الشاب ، أن تتوغل في صحراء كرمان ، وتهتدي الى مرج خصب نقي الاخضرار ، تفذيه عدة ينابيع تنحدر اليه من سفح تلة تقوم على جانبه .

« وأعجب زارا بالمرج ، حيث سطعت في بصيرته فور رؤيته له ، صورة ملونة لبركة سباحة تفور في وسط المرج وتبلط بالمرمر . وتقام التماثيل على جوانبها . وأخذت كتل الرخام الضخمة تفد الى كرمان من كافة المقالع . ومن هناك تنقل الى موضع المدينة الجديدة . وكان زارا يشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة ، حتى خيل لجميع البنائين والمثالين بأنه يرغب في ارسال حيويته المتفجرة الى أعماق الرخام . لقد كان هو الذي خطط المدينة ، وهو الذي وزع الابنية ، وهو الذي رسم شكل الاعمدة . ومن وصفه استطاع المثالون ان ينحتوا عشرات التماثيل للامير بشار . لقد كان يقتنص من وقته ساعة الغروب فيتمدد على المرج ويغمض عينيه ، ويترك لصور أحلامه وذكرياته ان تصنع له رؤى المرج النضير المثقل بذهب الاصيل ونور الابداع . ومع مضي الايام أخذ زارا يتناسى بشار شيئا فشيئا، وأخذ اهتمامه يزداد بالرخام والنفوش والتماثيل وتسوية المرج وبكل عمود يرفع من جديد وبكل حجر يكمل نحته . ومضت عدة سنوات من العمل المستمر قبل ان ينتهي بناء المدينة الجديدة . وفي يوم العمل الاخير ، وقد اكتملت المدينة كما كانت في تصوره ، وقف زارا على شرفة الدار الرئيسية المقامة في أعلى التل ، وهو يرقب مدينته الطازجة وبجانبه مربيه « مليتس » وبعض أفراد حاشيته ينظر تارة الى مبنى المسرح وطورا الى ملعب الرياضة ، ثم الى مساكن الحاشية ، وأخذ يتأمل بزهو جمال بناء المكتبة وما جلب اليها من كنوز فكرية . وشعر بانشراح لمنظر الاعمدة المصطفة وراء بعضها في الفراغ . وكأنها على وشك الطيران. ثم أرسل نظره بعيدا الى بركة السباحة الواسعة في قلب المرج ، والى التماثيل الناضرة العري القائمة حولها . وكانت شمس الخريف الواهنة تلامس الرخام بأشعتها الارجوانية ، فتضفي على المباني والاعمدة والمرج سحرا أخاذا ، ارتد في رؤى زارا لهيبا أحرق حجاب مخيلته ، حيث بدأت معالم المدينة تختفي من أمام ناظريه شيئا فشيئا .. وتحل محلها الملامح الانيقة الناضرة للامير بشار ، وهنا نفض زارا رأسه كمن أصيب بصداع مفاجيء ، والتفت الى مربيه قائلا وكأنه يخاطب نفسه :

– اين بشار ؟! لقد نسيت ان ارسل وراءه .

ثم هتف عاليا :

– الي برئيس الحرس .

ولما مثل بين يديه قال له :

– هييء نفسك للسفر الى قندهار لتأتي بالامير بشار .

فتجمد رئيس الحرس في مكانه ولم يحر جوابا .

فصاح به زارا :

– ما بك ؟ انطلق !

فأجابه بتلعثم بعد ان شجعته نظرات « مليتس » المطمئنة :

– يا مولاي . ان الامير بشار قد مضى منذ سنتين .

مؤلفات سارتر

* **دروب الحرية**

رائعة سارتر باجزائها الثلاثة

١ – سن الرشد ٥٥٠ ق.ل

٢ – وقف التنفيذ ٦٥٠ ق.ل

٣ – الحزن العميق ٥٥٠ ق.ل

ترجمة الدكتور سهيل أدريس

* **الغثيان**

اعمق روايات سارتر ٣٥٠ ق.ل

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* **محاورات في السياسة**

بالاشتراك مع روسيه وروزنتال

ترجمة جورج طرابيشي ٢٠٠

* **عاصفة على السكر (ط ٢)**

ترجمة عايدة مطرجي ادريس ٣٠٠

* **عارنا في الجزائر**

ترجمة عايدة وسهيل ادريس ١٠٠

فصاح بالم :

ـ هل مات ؟!

اجابه رئيس الحرس بارتعاش :

ـ أجل يا مولاي لقد مات . انه قلبه .

فصاح بعصبية وقد لطم وجهه :

ـ كيف يموت ؟.. كيف ؟

فاجابه مؤدبه الفارسي بصوت هادىء عميق :

ـ كما تموت الشهب والعبقريات والازهار والحضارات ، وكما يموت البرق وكل شيء خارق للعادة ... ما يكاد يتوهج حتى يتلاشى .

وهنا استرد زارا بعض وعيه ، ونظر باستعطاف الى وجه مليتس وقال بصوت كأنه البكاء :

ـ هل حقيقة يا مليتس ان بشارا قد مات ؟

فاجابه مربيه اليوناني بألفاظ لها رنين النشوة :

ـ كلا يا مولاي . انه لم يمت . انظر أمامك .

ثم صمت قليلا وأشار بيده الى المدينة وقد ألهبت شمس الغروب رخامها ومرجها ، وتابع قائلا :

ـ هذا هو الامير بشار . »

ران على الجميع صمت عميق ، وكان شعور بالرهبة يجتاحنا جميعا ، ساعدت أشعة الغروب الملامسة لبقايا المباني والمرج على تعميقه في نفوسنا . وكان اية علي قد وصل بالتعابير المرتسمة على وجهه الى منتهى المرض وقد فاضت عيناه بالدموع . وكنت طوال اصغائنا أرقب تحول وجهه السريع . كنت أعرف بأنه يحترق من الداخل ، وان طاقة الحياة تتسرب من جوانبه شيئا بعد شيء . كنت أرتهب لمجرد همسة أسكبها في اذنه .

وعندما بدأ الحاضرون يتوجهون نحو السيارات ، قام اية علي وتوجه نحو الجهة المخالفة بدون ان ينتبه لوجودي قربه . ثم وقف مستندا على أحد الاعمدة الرخامية ، وشمل المرج بنظرة كليلة ، ثم استدار نحو العمود ، ووضع شفتيه على الرخام البارد ، وظل يضغط عليه .. الى ان سقط على الارض . ولما انحنيت فوقه لاعينه على الوقوف ، كانت روحه قد فاضت من جسده .

وركض معظم الموجودين الى حيث كانت جثة اية علي مسجاة فوق الحشائش الخضراء ، وأخذوا يهمهمون وينهامسون باطلاق تعابير الاسى والحزن . وصاحت احدى السيدات المسنات ، وكانت زوجة أحد علماء الآثار الانكليز : « انها مشؤومة هذه المدينة ، لقد بدأت لعنتها تحل علينا » . كان الذعر قد ارتسم على معظم الوجوه . أما أنا فلم أعد أشعر بشيء ، وأحسست بانطفاء شامل يأتي على قواي . ولما حملت الجثة الى السيارة ، كنت أتمنى شيئا واحدا ، هو أن توارى جثة اية علي تراب المرج النضير .

***

عندما عدت الى مدينتي ، بدأ الشعور بالفاجعة مع مرور الايام يخف في نفسي شيئا بعد شيء . وذات يوم خريفي كئيب الضحى ، كنت أمر صدفة من امام مدخل المتحف الوطني عندما استوقفني منظر تمثال الالهة أثينا المنحوت من الحجر الاسود ، فأخذت انظر اليه بينما تجمعت في ذهني تعابير وحركات اية علي يوم انفجر ضاحكا امام هذا التمثال ، وأخذت ضحكاته الصافية ترن في اذني ، وتعبر مخيلتي كأمواج من نور . ولم يلبث الرنين المتماوج ان تجمد خلف جبهتي واستحال الى صورتي زارا وبشار . وعلى الفور تابعت طريقي وقد انبعث من وهج الصورتين سؤال مفاجيء اخذ يحفر ذهني : ترى من كان اية علي ؟ هل كان الامير بشار ؟ أم كان الامير زارا ؟

وما زال هذا السؤال يتردد في خاطري الى اليوم .

دمشق : **انور قصيباتي**

النهر

انا في انتظار الغائبين ، والف نائحة امامي
وجهي على شفة الزجاج ووجه امي في الظلام
وربيعك الفضي ، ملء يد النعاس ، بلا لثام
والماء يهرب من يدي كشعرك العبق الزؤام
عين تثلج ماؤها الذهبي ملء يدي وجامي

مدن وراء زجاجنا المائي يلهثن انبهارا
ويد كماء الحلم دافئة كانفاس العذارى
وحدائق من زرقة الامطار اغرقت النهارا
كنا عرايا ابرياء وكان كل دمي اخضرارا

... .

اغرقت روحي في اصفرار يديك عمرا من ظلال
حجر تهشم قرب مرآة ، واشرعة انخذال
الموج عاد بها هشيما دون مرفئها المحال
لمح على الصحراء من عدن توهج ثم زال
بيني وبين عيونك الزرقاء عمر من ظلال

يا رعشة كالصوت يلتمس الطريق الى الشفاه
يا صوتنا المنسي يا نهرا جفتنا مقلتاه
كانت لنا سفن واشرعة ولمح من سناه

... .

يا رعشة زرقاء يا طعم الندى يا منتهاه

نهر رمادي يسيل على شفاه من غناء
عيناه اقمار اخضرار طفولة وظلال ماء
ورؤى فوانيس وهمس مجارش واسى ثغاء
يا سمرة الصفصاف يا نهرا رمادي النداء
ضعنا وضيعناه في صحراء ملح وانطفاء

موسكو ـ **حسب الشيخ جعفر**